2013 11 13

خطـاب هيـلاري التخرجـي في ويـزلي جـاء بعـد كلمـة ألقاها عضو مجلس الشـيوخ الجمهـوري إدوارد بروك الماساتشوستسـي، الرسـمي المنتخب الزنجي الأعلى مرتبة في أمريكا في ذلك الوقت، وعضو مجلس شـيوخ الولايات المتحدة غير القوقازي الوحيد، إنه شخص كانت هيلاري قد نشطت في حملته الانتخابية بقـوة؛ غـير أن هيـلاري الجريئـة أزاحـت نصها المكتـوب جانبًـا، وانقضت على السـيناتور الـذي كان – برأيهـا – قـد أطلق بعض الملاحظات غـير الصحيحة وغير الودية حول التقمص العاطفي.

كان الرجـل قـد قـال إنـه كان – رغـم تعاطفـه مع بعض أهـداف المحتجين المناوئـين للحـرب والمطالبين بالحريـات المدنية – يعارض تكتيكاتهـم التي رآها (قسـرية). وبالنسـبة إلـى هيـلاري بـدا مدافعًـا لا عن الحرب وحسـب بل وعن أسـلوب الرئيس نكسـون في مواصلة اقتراف الأخطاء، كذلك استغربت هيلاري أن بروك (وهو زنجي) كان قد أخفق في الإتيان على ذكر جريمتي اغتيال مارتن لوثر كنغ الابن، وروبرت كندي، ذينك الحدثين اللذين كانا قد حددا مواصفات العقد إلى الآن.

قرأتُ نص خطابها: «لسنا بعد في مواقع القيادة والسلطة، إلا أننا مكلفون بأداء تلك المهمة التي لا يمكن الاستغناء عنها، المهمة المتمثلة بالنقد والاحتجاج البنَّاء، وأجدني مضطرة للرد بإيجاز على بعض الأمور التي قالها السيناتور بروك؛ جزء من مشكلة التقمص العاطفي مع الأهداف المعلنة يكمن في أن مثل هذا التعاطف لا يساعدنا في شيء؛ نمتلك فيضًا من التقمص العاطفي، لدينا طوفان من العواطف، إلا أننا نشعر بأن قادتنا طالما وظفوا السياسة لجعل الممكن مستحيلًا. ما معنى سماع أن (3 ,13%) من شعب هذا البلد هم تحت خط الفقر؟ إنها نسبة مئوية؛ نحن لسنا مهتمين بإعادة البنى الاجتماعية؛ إنها عملية إعادة بناء إنسانية. كيف نستطيع أن نتكلم عن نسب مئوية وتوجهات؟».

تابعت مع ما كانته هي وزميلاتها عند مجيئهن إلى الجامعة قبل أربع سنوات: مسألة الممكن والمستحيل كانت مسألة جلبناها معنا إلى ويزلي قبل أربع سنوات، وصلنا ولم نكن بعد نعرف ما لم يكن ممكنًا؛ توقعنا إذن أشياء كثيرة، مواقفنا سهلة الفهم، بوصفنا قد امتلكنا الوعي في الأعوام الخمسة من هذا العقد – أعوام سادها رجال حالمون، أناس أعضاء في حركة الحقوق المدنية، فصائل السلام، برنامج الفضاء – فوصلنا إلى ويزلي واكتشفنا – كما فعلنا جميعًا – أن هناك فجوة بين التوقعات والوقائع، ما فعلناه صعب الفهم غالبًا بالنسبة إلى بعض الناس. كثيرًا ما يسألوننا: لماذا أنتم باقون في المكان إذا كنتم غير راضين؟ ما أشبه ذلك بما اعتادت أمي على تكراره قائلة: سأحبكم دائمًا، غير أن هناك أوقاتًا لا تعجبونني فيها!

واصلت مناقشة جملة التغييرات التي كان صفُّها قد استحدثها في ويزلي قائلة: حبنا للمكان، هذا المكان بالذات (كلية ويزلي) مصحوب بتحررنا من عبء واقع غير صادق، مكَّننا من مساءلة الفرضيات الأساسية الكامنة وراء تعليمنا. قبل أيام المظاهرات المنسقة غالبًا من أجل وسائل الإعلام، كنا نعقد اجتماعاتنا هناك في بقعة مرآب المؤسسين.

اعترضنا على شرط التوزيع الأكاديمي الجامد. عملنا من أجل نظام قائم على نجاح/ رسوب. طالبنا باختزال بعض إجراءات صنع القرارات الأكاديمية. لحسن الطالع كنا في مكان كان فيه – حين تساءلنا عن معنى التعليم الليبرالي – أشخاص متحلون بخيال يكفي للتجاوب مع تساؤلنا، ذلك هو ما جعلنا نحقق تقدُّمًا. أنجز جل الأشياء التي رأينا في البداية أنها ناقصة في تلك الفجوة بين التوقع والواقع.

اهتماماتنا لم تكن – بالتأكيد – أكاديمية وحسب، كما نعرف جميعًا؛ كنا مهووسين بمسائل ويزلية داخلية متعلقة بآليات القبول، بنوعية أولئك الذين يجب أن يلتحقوا بركب ويزلي، وبالسيرورات الكفيلة بإيصالهم إلى هنا، تساءلنا عن المسؤولية التي يجب أن نضطلع بها إزاء حياتنا أفرادًا من ناحية وأعضاء في فريق جماعي من ناحية ثانية.

وجدتني عاكفة على التفكير معجبة بمدى جدارة جملة هذه التغييرات الكثيرة التي استطاع الطلاب أنفسهم إحداثها في تعليمهم؛ كم كانت الأمور مختلفة أيام دراستي الجامعية، حين كانت أي اقتراحات صادرة عن الطلاب تتعرض فورًا للرمي في أقرب سلة مهملات.

وهيلاري التي طالما كانت مثقلة بالمشاعر حول المحرومين في العالم، تابعت معبرة عن تمنياتها لخير الجنس البشري. «جنبًا إلى جنب مع اهتمامنا بالمجتمع هنا في ويزلي كنا مهتمين بما هو حاصل هناك خلف بيت هاثاواي، كنا نريد أن نعرف طبيعة العلاقة التي ستنسجها ويزلي مع العالم الخارجي، وأحد الأشياء الأخرى التي فعلناها تمثل ببرنامج الصعود الإلزامي، ثمة أشياء كثيرة جدًّا يمكننا أن نتحدث عنها؛ محاولات كثيرة جدًّا، أقله طريقتنا في النظر إليها، في أسلوب انخراطنا بالعالم الخارجي. وأظن أننا نجحنا؛ سيكون برنامج صعود إلزامي، مثالًا واحدًا فقط، في المدينة الجامعية هذا الصيف».

أرادت هيلاري بخطابها أن تقدم وصفًا لحياتها الجديدة شابة مثالية، كثرة من الأمور التي ذكرتها – تلك القائمة على افتراض السلطة والمسؤولية – كانت همومًا عامة في المدن الجامعية في العالم من أوله إلى آخره. غير أن في عمق الهموم ثمة موضوعًا معينًا، موضوعًا بالغ التفاهة والقدم؛ لأن الكلمات بالغة الألفة والتكرر، ثمة كلام عن الاستقامة، الثقة، والاحترام. ونحن دائبون – جميعًا بلا استثناء – على اسكتشاف عالم لا يفهمه أحد منا، وعاكفون على محاولة إيجاده في إطار ذلك اللايقين.

غير أن هناك أشياء معينة نشعر بها؛ شاعرون نحن بأن حياتنا الطاغية، الاستحواذية، والتنافسية بما فيها، مأساويًّا، جامعاتنا، ليست طريقة الحياة المناسبة لنا. نحن عاكفون على البحث عن نمط عيش أكثر مباشرة، أوفر إثارة، وأعمق انخراطًا. كذلك هي مسائلنا بشأن مؤسساتنا، بشأن كلياتنا، بشأن كنائسنا، وبشأن حكوماتنا تبقى مستمرة. رأينا في الصحف أنها مسائل يجري الترويج لها والتبشير بها، وقد اقترح السيناتور بروك بعضها هذا الصباح؛ غير أننا – جنبًا إلى جنب مع إطلاق هذه الكلمات (كلمات الاستقامة، الثقة، والاحترام) فيما يخص المؤسسات والقادة– متطرفو التشدد ربما مع أنفسنا بالذات بشأنها.

لا أعرف بالنسبة إلى الطالبات الأخريات، غير أن الكلام كان ولايزال صحيحًا مئة بالمئة بالنسبة إلى هيلاري.

وقالت هيلاري التي كانت لاتزال مراهقة، هيلاري كثيفة الانشغال بتشكيل هويتها: «ما من احتجاج، اعتراض، سواء أتمثل بمداخلة أكاديمية فردية أم بمظاهرة في مرآب المؤسسين إلا وهو – بلا خجل أو مواربة – نوع من السعي لاجتراح هوية محددة في هذا العصر الخاص، وذلك المسعى كان – بالنسبة إلى العديد منا، يعني، طوال السنوات الأربع الماضية – تصالحًا مع إنسانيتنا، مع كوننا بشرًا.

(تساءلت عما إذا عنت أنها كانت قد غفرت لنفسها انحرافها وتورطها في تعاطي المخدرات).

«إدراكنا للواقع هو أنه كثيرًا ما يتأرجح بين إمكانية وقوع كارثة واحتمال التلبية الإبداعية القائمة على خصوبة الخيال لحاجات الناس. ثمة نبرة محافظة شديدة الغرابة تخترق جوانب كثيرة من اليسار الجديد، من الاحتجاجات الجامعية التي أجدها شديدة الإرباك؛ لأنها مرددة لأصداء الكثير من الفضائل القديمة بدلًا من إنجاز أفكار أصلية، وهذه أيضًا تجربة أمريكية فريدة. إذا لم تفعل تجربة العيش البشري فعلها في هذا البلد، وفي هذا العصر، فإنها لن تفوز في أي أمكنة أخرى.

إلا أننا نعرف أيضًا أن التعليم يجب أن يستهدف تحرر البشر؛ تحررًا يمكّن كلًّا منا من تحقيق قدرته على أن يكون حرًّا في الإبداع داخله وحوله. لا بد للتعليم من أن ينعكس على الفعل، وهنا نسأل أنفسنا مرة أخرى كما سبق لنا أن سألنا آباءنا وأمهاتنا وأساتذتنا عن معاني الاستقامة، والثقة، والاحترام. تلك الكلمات الثلاث تعني أشياء متباينة بالنسبة إلينا جميعًا.

مثلًا، الاستقامة: شجاعة التكامل، العيش جنبًا إلى جنب في شعر الوجود الغزير. إذا كانت حيواتنا هي الأدوات الوحيدة التي نلوذ بها في النهاية، فإننا نوظفها بالطريقة التي نستطيعها باختيار أسلوب عيش مؤهل لعكس نمط شعورنا ومعرفتنا».

الثقة: حين سألت الصف في اجتماعنا الأخير عما هن راغبات في أن أقوله باسمهن، الجميع طلبن أن أتحدث عن (الثقة). طلبن أن أتكلم عن الافتقار إلى الثقة بين الأشخاص وعن الإحساس بالآخرين. ما الذي يمكنك أن تقوليه عن الثقة؟ ما الذي تستطيعين قوله عن شعور يخترق جيلًا، شعور ليس حتى مفهومًا ربما من قبل أولئك الذين هم من غير الموثوقين؟ كل ما يستطاع فعله هو مواصلة المحاولات مرة بعد أخرى، فثالثة ورابعة؛ إنه ذلك البيت الرائع في

قصيدة (كوكر الشرق) لإليوت عن عدم وجود طريقة أخرى غير المحاولات المتكررة مرات ومرات للفوز من جديد بما سبق لنا أن فقدناه من قبل».

دار في خلدي: البيت وصف لهيلاري الراشدة جنبًا إلى جنب كل ما أعرفه عنها. إضافة إلى كل ما ترغب هيلاري أن تناضل من أجله مرة بعد مرة، بعد مرة.

ويتواصل نص خطابها: «ثم نصل إلى كلمة احترام. ثمة تلك التبادلية للاحترام بين الناس، حيث لا يقيم الناس من منطلق نسب مئوية. حيث لا تقوم باستغلال الناس. حيث لا تكون حريصًا على هندسة الناس اجتماعيًّا».

فكرت: ألم يكن الحصول على رئيس جمهورية مؤمن بذلك أفضل؟!

«النضال في سبيل حياة متكاملة تنعم بأجواء الثقة والاحترام، نضال ذو عواقب سياسية واجتماعية شديدة الإلحاح، وكلمة (عواقب) تقذفنا بالتأكيد إلى قلب المستقبل. يبقى الخوف دائم الحضور، غير أننا أكثر انشغالًا من أن نلتفت إليه؛ لا وقت لدينا؛ ليس الآن».

اختتمت خطابها بقصيدة رائعة ألفتها نانسي شايبنر ، قصيدة كان من شأنها أن تكون مكتوبة من قبل هيلاري نفسها. هاكم المقطع الأخير من القصيدة:

أنت وأنا يجب أن نكون طليقين
لا لإنقاذ العالم في حرب (صليبية) مجيدة
لا لنقتل أنفسنا بألم قارض لا اسم له
بل لنمارس بكل ما لدى كياننا من مهارة
فن جعل العيش في هذا العالم ممكنًا.

رأيت أنه كان خطابًا ساحرًا، لاسيما عندما نتذكر أن الخطيبة لم تكن تتجاوز الحادية والعشرين من العمر. عبرتُ عن رأيي على مسامع هيلاري.

ابتسمت ابتسامة مشرقة وقالت: أنا سعيدة جدًّا برأيك! مع أن أبي حضر حفل التخرج، فإن أحد أكبر أسباب أسفي في الحياة هو أن أمي كانت مريضة وعاجزة عن الحضور، شعرت بكثير من الخيبة بعد كل الذي فعلته لضمان نجاحي في الكلية. من نواحٍ معينة، كان الاحتفال لها هي، وليس لي أنا. استمتاعك بخطابي يشكل نوعًا من التعويض عن غيابها.

أصابتني نوبة رعب: هل تحاول وضعي في مكان أمها تعويضًا؟ لم أنتبه إلى ذلك. مهما يكن، آمل أن يكون جواب التساؤل إيجابيًّا، كان بوسعها أن تغوص بتحليلها إلى مستويات أعمق بكثير.

في الوقت نفسه قدرت أن من الأفضل لجم أمومتي المقابلة، وهو رد الفعل الذي يبرزه المريض أو المريضة لدى أي طبيبة أو طبيب معالجة. لماذا أنا معجبة بها كل هذا الإعجاب؟ لأنها جديرة بالإعجاب، ذلك هو السبب. إنها ذكية، لطيفة، واسعة الاطلاع، وأنا أتعلم منها أشياء كثيرة. متفوقة هي على سائر المرضى الآخرين في التحلي بالقدرة على الإمتاع. يضاف إلى ذلك أنها نجمة لامعة، ومجيئها إلي يشعرني بقدر كبير من الزهو. من قال إنك لا تستطيع أن تُعجب بمرضاك؟ ما هذه المهنة المجنونة التي يثير فيها صاحبها الريبة إذا أُعجب بزبائنه؟ من الأفضل لي أن أكون محاسبة في سوبرماركت حيث لا ينتقدني أحد إذا تبادلت الضحك والمزاح مع الزبائن.

على أي حال، يبدو أن العالم كله اتفق مع تقييمي لخطاب هيلاري. محررو مجلة لايف رأوا أنه كان مثالًا لما كان يحدث في المدن الجامعية في طول البلاد وعرضها، ونشرت ذلك مع صورة لهيلاري وعلى عينيها نظاراتها الشبيهة بقاع قوارير الكوكاكولا وسروالها الشبيه بالجرس، وحدها هيلاري كانت غافلة عن مدى استثنائية خطابها؛ لم تكن واثقة من أنها كانت قد نطقت بالأشياء الصحيحة.

مع انتهائي من قراءة خطاب هيلاري شعرت مغمورة بعمق كثافة وحكمة هذه الصغيرة التي لاتزال في مرحلة المراهقة؛ كانت امرأة عظيمة في سنها المبكرة؛ لا غرابة أن مجلة لايف أبرزتها. لو سمعت الخطاب في الوقت الذي ألقته فيه لما فوجئت لو تنبأ أحدهم بأن من شأنها أن تنتخب رئيسة أولى لجمهوريتنا.